الكتابة الديوانية في العصر الاسلامي ودور « ابن المقفع »

بقلم : الدكتور أحمد عُلبي

«أكرموا الكُتّاب ، فإن الله عزّ وجلّ أجرى أرزاق العباد على أيديهم » .

عبد الحميد الكاتب

(الجَهْشَياري : الوزراء والكتّاب ، ص٨٠)

لقد اشتغل عبدالله بن المقفّع بالكتابة ، وهذه المهنة عرفها العرب منذ ظهور الإسلام ، إذ كان للنبي كُتّاب يُملي عليهم . على أن الكتابة عند العرب كانت عهدذاك بحكم النُّدْرة ، إذ جاء في العِقْد الفريد : « وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير سبعة (وقيل : بضعة) عشر إنساناً » . ومن هؤلاء عمر وعثمان وعليّ الذين كتبوا للنبي ، ثم جاءتهم الخلافة بعدها تِباعاً[1] . وقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية مع الفتوح ، ونشأت الدواوين ، واحتاجت الدولة إلى ضبط أعمالها ، فازداد شأن

(١) ابن عبد ربّه : العِقْد الفريد ، ج٤ ص١٥٧ ، ١٦٨ .

الكتابة وبالتالي أمر الكُتّاب ، خاصة وأن العرب لم يتداولوا الكتابة كثيراً وكان من يجيدها منهم ، كما تقدّم ، نفر قليل .

ديوان السر

ومع مجيء الأمويين إلى الحكم ومجاورتهم الروم ، ومع تشابك مصالح الدولة الإسلامية ، تنوّعت الأعمال الكتابية بتنوّع الدواوين التي مرّت في ذاك الزمن بمرحلة التعريب الحاسمة ، وذلك بسبب رسوخ الدولة الإسلامية وتمشياً مع طبيعة تطورها الخاص . لذا أصبح هناك ، كما يذكر البَطَلْيَوْسي ، نقلاً عن ابن مُقْلة ، خمسة أصناف من الكتّاب : هناك كاتب الخط الذي يمتهن النقل . وكاتب اللفظ وهو المترسّل . وكاتب العَقْد وهو أنواع من كاتب الحساب وكاتب المجلس وكاتب العامل وكاتب الجيش ، وهؤلاء جميعاً ينبغي أن يكونوا على دراية بالحساب والمعاملات والمساحات والأرزاق . وهناك كاتب الحكم الذي يتوزع عمله على كاتب القاضي وكاتب المظالم وكاتب الديوان وكاتب الشرطة ، وهؤلاء جميعاً يتوجب عليهم أن يكونوا على تبصّر بأصول اختصاصهم . وهناك أخيراً كاتب التدبير وهو أجلّ الكتّاب مرتبة ومنزلة ودوراً وخطورة[٢] . وكاتب التدبير يجالس السلطان ويكتب أسراره ورسائله ، لذا دُعي كاتب الرسائل ، أي صاحب ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل ، كما دُعي أيضاً كاتب السر ، وكان لا يتولى هذا المنصب حتى أيام العباسيين سوى أقرباء الخليفة وخاصّته . ولهذا أُطلق على ديوان الإنشاء أيضاً اسم ديوان السر ، كما سُمّي الديوان العزيز[٣] .

ونلاحظ أن الكتّاب البارزين لدى الخلفاء العباسيين أضحَوْا وزراء ، أمثال أبي أيوب المُوْرياني كاتب السفّاح ووزير المنصور الوطيد المكانة ، والحسن بن سهل كاتب المأمون ، ومحمد بن عبدالملك الزيّات كاتب المعتصم والواثق . وذلك أن هؤلاء الكتّاب كانوا ، بحكم مهنتهم ، على بيّنة من أسرار الدولة ودخائلها ، وتربطهم برأس السلطة علاقة وُثْقى . وإن العبارة التي تُنقل على لسان عبدالحميد الكاتب حول كتّاب ديوان الإنشاء صارخة التعبير في ما بلغه هؤلاء من مرتبة وتجلّة ونفوذ : « لو كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء لنزل على كتّاب الإنشاء »[٤] .

(٢) البَطَلْيَوْسي : الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب ، ق ١ ص١٣٧ ـ ١٦٠ .
(٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، ج١ ص٢٥٤ .
(٤) ابن حجّة الحَمَوي : ثمرات الأوراق ، ص٣٣٥ ـ الصّفدي : الوافي بالوفيات ، ق١٥ ص٣٧٥ و ٣٧٦ .

« حَمَلَة العِلم أكثرهم العَجَم »

لقد برع الفُرس بالكتابة وطارت لهم فيها شهرة ، نظراً لعراقة امبراطوريتهم . فلما كان الإسلام ، وبات أهل فارس جزءاً من الدولة الإسلامية الجديدة ، استعان بهم الحكام في الدواوين ، وذلك لأن الفاتحين العرب شغلتهم الحرب والسياسة عن الاشتغال بأمور الإدارة والتنظيم . بل إن الخليفة عمر بن الخطاب كان يَنْهى المسلمين الفاتحين عن تعاطي الزراعة والأخذ بأساليب الحضارة ، وقد حال بينهم وبين تملّك الأراضي التي افتتحوها ، حرصاً عليهم من فتور حميّتهم العسكرية وضياع نشاطهم الحربي . ومن يخالف أمر عمر ويبادر الى اعتمال الأرض فالنَّكال عاقبته ، لأن الخليفة وعد جمهور الفاتحين ، وكانوا جُنْداً عاملين في الجيوش ، أن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فعليهم ألاّ يزرعوا . يقول عمر إنه سمع النبي يقول : « إذا فتح الله عليكم مصرَ فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند أجناد الله . فقال له أبو بكر : ولِمَ يا رسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم في رِباط الى يوم القيامة » . ولهذا وجب على هؤلاء الجند الفاتحين صيانة خيلهم ، من قول عمرو بن العاص في خطبة له : «ولا أعلمنَّ ما أتى رجلٌ ، قد أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا أني معترض بالخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علّة حططت من فريضته قدر ذلك»[٥] .

إن الفاتحين العرب عرفوا شَظَف البادية ، « ولم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دُفعوا إليه ، ولا دعتهم إليه حاجة »[٦] . فهم في مرحلتهم الأخيرة ما قبل الإسلامية على الأمية ، في حين أن الفرس مارسوا الحضارة والسلطان وخَفَضَ العيش ، وما كانت اللغة العربية غريبة عنهم وكذلك أصحابها ، لأن اختلاط الفرس بالعرب قديم ، ولا يخفى أن الفرس أخضعوا اليمن ، لمرحلة من الزمن ، تحت حكمهم . بل إن الفرس ، بَلْهَ بعض ملوكهم ، تعلموا العربية قبل الإسلام وتعاطَوْا بها الشعر . شأن بَهْرام بن يَزْدَجِرْد ، فقد نشأ مع العرب في الحِيرة ، ونظم شعراً كثيراً بالعربية[٧] . وكان من حال الفارسي الذي يبغي التأنق أن يتكلم بالعربية . وقد أضحى في الإسلام عدد جمّ من الفرس حُجّة في علوم اللغة والقرآن ، بحيث قال

(٥) السُّيُوطي : حُسْن المُحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ج١ ص١٥٤ و ١٥٥ .
(٦) ابن خَلْدُون : المقدّمة ، ص٥٤٣ .
(٧) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج١ ص٣٠٣ و ٣٠٤ .

فيهم ابن خَلْدون : « من الغريب الواقع أن حَمَلَة العِلم في المِلّة الإسلامية أكثرهم العَجَم »[٨].

صناعات الموالي

اعتبر الفاتحون العرب العلم من الصناعات والمِهَن، فكرهوا الاشتغال به «لمقتضى أحوال السَّذَاجة والبداوة »[٩]. وكانوا ينعتون العربي الذي يمتهن التعليم أو يتبحر في اللغة من أنه يتعاطى بصناعات الموالي[١٠] ! لعمري ، متى كان العلم أو التعليم سُبّة وعيباً ؟ ! يقول ابن خَلْدون : « وأما العرب ، الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البِداوة، فشغلتهم الرئاسةُ في الدولة وحاميتها وأُوْلي سياستها، مع ما يلحقهم من الأنَفَة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع، والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمِهَن وما يَجُرّ إليها، ودفعوا ذلك إلى مَنْ قام به من العجم والمولّدين»[١١].

وكان رُوْزَبَه بن دَاذَوَيْه الذي اشتهر بابن المقفّع وتسمّى عقب إسلامه بعبدالله ، من هؤلاء الموالي الذين اشتغلوا في الدواوين العربية بالكتابة . وكان الموالي في مرتبة وسطى بين الأحرار والعبيد . لقد كتب ابن المقفّع ، في العهد الأموي ، للمسيح بن الحَوَاريّ بنَيْسابور ، عاصمة خُراسان ، طَوَال ست سنوات . كما كتب ليزيد بن هُبَيْرة في كَرْمان[١٢]. ويبدو أنه حصّل من عمله هذا ثروة طائلة[١٣]. أما في العهد العباسي فقد اشتغل كاتباً لدى المنصور ، ثم ارتبط بعدها بالكتابة لأعمام الخليفة ، وظل حتى مماته في كَنَفهم . وقد أسلم على يد أحدهم ، وهو عيسى بن علي ، وتكنّى بأبي محمد وكان قبلاً أبا عمر[١٤].

وينبغي أن يكون ابن المقفّع بارز الشخصية في محيطه ، ميسور الحال ، ما دام ينتسب إلى جماعة الكتّاب . فالدولة بحاجة إلى هؤلاء الذين يتعاطَوْن الكتابة الإدارية والسياسية ، لذا كانوا موضع حفاوة وإكرام ، فإن رواتبهم موفورة وجراياتهم جزيلة . وقد بلغ بعض الكتّاب حظاً كبيراً من الغنى ، ورُمي بعضهم بتُهم الاختلاس والارتشاء ومشاركة العمال في ذلك ، بحيث خضعوا لعمليات الحبس والمصادرة لاستخراج الأموال منهم[١٥]. ونعثر في « رسالة الصحابة » لابن المقفّع أنه يندد بالكتّاب ، لما لهم من نفوذ ومداخلات في أرزاق الناس[١٦]. ولهذا يقول أحد الشعراء ، بعد أن استصفى المنصور أموال وزيره أبي أيوب المُورياني وقتله ، وكان هذا الوزير نهماً إلى جمع الأموال :

أسوأ العالمين حالاً لديهم من تسمّى بكاتبٍ أو وزيرِ[١٧]

ابن المقفّع وصاحب الاستخراج !

وهناك رواية تتعلق بابن المقفّع وردت لدى الجاحظ يقول فيها[١٨]: « وأما عبدالله بن المقفّع فإن صاحب الاستخراج لما ألحّ عليه في العذاب ، قال لصاحب الاستخراج : أعندك مال وأنا أُربحك ربحاً ترضاه ؟ وقد عرفتَ وفائي وسخائي وكتماني للسر ، فعيّني مقدار هذا النَّجْم . فأجابه إلى ذلك ، فلما صار له مال ترفّق به مخافة أن يموت تحت العذاب فيتوى مالُهُ »[١٩].

إن صاحب الاستخراج أو صاحب العذاب هو الذي يُعهد إليه باستصفاء أموال الأشخاص الذين يُتهمون باختلاس الدولة الإسلامية ، وهؤلاء الأشخاص هم علية القوم من الوزراء والولاة والكتّاب وجُباة الخراج . ولم يكن صاحب الاستخراج ليعفّ عن اللجوء إلى أشنع وسائل التعذيب ، لكي ينجز مهمته في أن يستخرج من المتهمين أموالهم الطائلة المخبوءة . بدليل أن صاحب الاستخراج عندما نفحه ابن المقفّع بربح يرضاه ، لقاء استدانته المال منه ، « ترفّق به مخافة أن يموت تحت العذاب » . وذلك لأن وسائل التعذيب المستعملة كانت وحشية ، ولم يكن الاستخراج على الدوام شرعياً ، وكان يقوم به جلّاد باع دينه وآخرته[٢٠].

ومعنى الرواية المتقدمة عن ابن المقفّع أنه متهم بالاختلاس ، بحيث وقع تحت ضربات صاحب الاستخراج . وهو متهم

(٨) المقدمة ، ص٥٤٣ .
(٩) ابن خلدون : ص٥٤٣ .
(١٠) زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، ج٣ ص٥٤ .
(١١) المقدمة ، ص٥٤٤ .
(١٢) الجَهْشياري : الوزراء والكتّاب،ص١٠٥ ، ١٠٩ .
(١٣) F. Gabrieli : Encyclopédie de l'Islam , t.3, p. 907
(١٤) عبدالقادر البغدادي : خزانة الأدب ولُب لسان العرب ، ج٣ ص٤٦٠ .
(١٥) زيدان : ج٢ ص١٣٩ و ١٤٠ ، ١٦٧ .
(١٦) محمد كرد علي : رسائل البلغاء ، ص١٣١ .
(١٧) ابن الطِّقْطَقَى : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص١٧٦ .
(١٨) البيان والتبيين ، ج٢ ص١٦٦ و١٦٧ .
(١٩) عيّني : أعطني . النَّجْم : هو وقت أداء الدين ، ويقال نجمت المال يعني أدّيته نُجُوماً أي في أوقات معيّنة . فيتوى مالُهُ : يهلك ويضيع على صاحبه .
(٢٠) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج١ ص٢٣٣ ـ ٢٣٦ .

لاشتغاله بالكتابة الترسّليّة ، أو ربما لتعاطيه وظيفة الخراج ، هذا إذا أخذنا بالاعتبار الرواية القائلة إنه تولّى خراج بعض كُوَر دِجْلة ، وقيل كورة بِهْقُباذ ، وهي من أعمال سقي الفرات ، وذلك من قِبَل صالح بن عبدالرحمن الذي تسلّم خراج العراق أثناء خلافة سليمان بن عبدالملك[٢١] التي امتدت خلال السنوات ٩٦ ـ ٩٩هـ[٢٢]. وبالتالي فقد لقي ابن المقفّع ما لقيه أبوه قبله من تعرّض لتهمة احتجان مال يخص الدولة على عهد الحجّاج ، فكان أن ضربه صاحب العذاب ضرباً مبرّحاً حتى تقفّعت يده[٢٣]. فدُعي المقفّع ، واشتهر ولده بابن المقفّع[٢٤]. وقد مشى الابن على خطى أبيه الذي اقترض مالاً من صاحب الاستخراج بحيث أبقى عليه من القتل[٢٥]. ومهما كان شأن التهمة التي رُمي بها ابن المقفّع من الصحة أو عدمها ، خصوصاً وأن تهمة الاختلاس الملفّقة كان لها سوق رائجة في العصر العباسي ، فلنا أن نستخلص من رواية الجاحظ أن ابن المقفع كان على يسار ، بحيث رضي صاحب الاستخراج أن يكون له دائناً . ثم هي توضح ما ذاع عن ابن المقفع من السخاء والوفاء ورجاحة المسلك ، إذ العهد بهذا الرجل انه على خُلُق نبيل.

صفات الكاتب

وقد حرص العرب أن تجتمع لدى الكاتب خِلالٌ محمودة ، شأن ملاحة الزيّ والمنظر ، واعتدال القامة لا أن يكون فضفاضها ، وكثافة اللحية ، وحلاوة الشمائل ، ورهافة الذهن والحس والبيان ، وجمال الخط[٢٦] . وذكر أبو حيّان التوحيدي ، بالإضافة إلى أدوات المنشيء الثقافية ومنها مهارته في نظم الشعر ، سجاياه الأخلاقية من دماثة الخُلُق ورقة الحاشية ومَلاحة النادرة وحُسْن المحاضرة ، وأن تكون صلته بالناس مبنية على الود وعدم التكبر والتعجرف ، وأن تكون لغته معتمدة على الألفاظ المتناسبة المشاكلة للمعاني ، لا أن يتوسل اللغة العويصة ذات الألفاظ الغريبة فيعتسف الكلام اعتسافاً منفِّراً[٢٧]. وما بالنا ننسى رسالة عبدالحميد الى الكتّاب ، فهي جامعة للأدوات الكثيرة التي ينبغي أن يضطلع بها الكاتب لتجويد صناعته والارتقاء بها إلى مرتبة الشرف .

وقد غدت مهنة الكتابة مدار بحث وتأليف في موضوعها ، نذكر من ذلك كتاب « أدب الكاتب » لابن قُتَيبة (ت ٢٧٦هـ) ، وقد قسّمه مؤلفه العتيد الى كُتُب أربعة هي : كتاب المعرفة ، كتاب تقويم اليد ، كتاب تقويم اللسان ، ثم كتاب الأبنية من أفعال وأسماء . وهو يَنْعَى في مقدمة عمله الجليل على الكتّاب جهلهم وغفلتهم ويدعوهم ، بالإضافة إلى ما ورد في كُتُبه المتقدمة الذكر ، الى الاطّلاع على علم مساحة الأراضي وموضوع المياه ، وعلى النظر في الفِقْه وأصوله المتعلقة بالبُيوع . ثم يأتي على الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها الكاتب من المروءة والصدق والمزاح المستلطف وعدم التقعير والتشدّق والتماس الكلام الوحشيّ الغريب ، وأن تكون ألفاظ الكاتب متجانسة مع مَنْ يكتب إليه : « ونستحب له أن ينزّل ألفاظه في كُتُبه فيجعلها على قَدْر الكاتب والمكتوب إليه ، وألاّ يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس خسيس الكلام »[٢٨].

وهناك «أدب الكتّاب » لأبي بكر الصُّوْلي (ت ٣٣٥هـ) ، وقد جعله صاحبه في ثلاثة أجزاء : احتوى الجزء الأول أفكاراً حول الكتابة والخط والقلم . وتضمّن الجزء الثاني خصوصاً معلومات تتعلق بأدوات الكتابة . في حين أن الجزء الثالث تميّز باشتماله على بعض ما حثّ ابن قُتيبة الكاتب على معرفته من أحوال الأرضين . لكنّ الجزءين الثاني والثالث نجد فيهما شتاتاً

(٢١) البلاذُري : فتوح البلدان ، ص٣٣٢ ، ٥٧٠ .

(٢٢) عندما حمل ابن المقفع مال الخراج ورسالة موضحة عن مقداره الى صالح بن عبدالرحمن ، جعل ذلك في جلد وصِفْر الرسالة ، أي جعلها مصفّرة بالزعفران ، وَفْق العادة المتبعة بعد كِسْرى بن هُرْمُز أبْرْويز الذي تأذى بروائح صُحُف الخراج التي تُحمل اليه كل سنة من أصحاب الخراج ، فأمر صاحب ديوان الخراج أن لا تُرفع اليه صحف الخراج إلا مصفّرة بالزعفران وماء الورد . وعندما وردت رسالة ابن المقفع الى صالح بن عبدالرحمن ضحك وقال : « أنكرت أن يأتي بها غيره » (البلاذري : فتوح البلدان ، ص٥٧٠). وهذا العمل ينبيء بثقافة ابن المقفع الفارسية ومستواه الاجتماعي الرفيع . والجدير بالذكر أن صالح بن عبدالرحمن هو أول من نقل الديوان من الفارسية الى العربية في ما يختصّ بالحساب ، وذلك أيام الحجاج ، « فكان كتّاب العراقَيْن غِلمانه وتلامذته » (أبو هلال العسكري : الأوائل ، ق ١ ص٣٧٢) . وكان عبدالحميد الكاتب يقول : « لله در صالح ، ما أعظم مِنّته على الكتاب ! » (البلاذري : فتوح البلدان ، ص٣٦٩) .

(٢٣) ابن النّديم : الفِهْرِست ، ص١١٨ .

(٢٤) ونحن ندع جانباً الرواية التي ربما انفرد ابن مكّي الصّقَلي بذكرها والقائلة بأن ابن المقفّع بكسر الفاء من حيث الصواب لا فتحها كما هو شائع ، وذلك لاشتغال أبيه بصنع القِفاع وبيعها (تثقيف اللسان وتلقيح الجَنان ، ص١٣٩) . وقد نقل ابن خَلِّكان هذه الرواية عن ابن مكّي ، كما أتى على ذكرها البغدادي من غير سند . والقِفاع مفردها القَفْعَة مستديرة الشكل بدون عُروة ، وهي تُعمل من الخوص ، ويسمّيها الناس « القفّة » (ابن مكّي : ص١٣٩ هامش ـ ابن خلّكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، م٢ ص١٥٥ ـ البغدادي : خزانة الأدب ، ج٣ ص٤٦٠) .

(٢٥) البلاذري : أنساب الأشراف ، ق٣ ص٢١٨ .

(٢٦) ابن عبد ربّه : ج٤ ص١٧١ و ١٧٢ .

(٢٧) ابن حِجّة الحموي : ص٣٩٥ و ٣٩٦ .

(٢٨) ابن قُتَيبة : أدب الكاتب ، ص٩ ـ ١٨ .

من الأمور الإضافية ذات الصلة بالكتابة ، شأن الديوان وبعض الأمور اللغوية والبيانية ، مما يوضح أن الصُّولي لم يجزىء كتابه على نحو سويّ ، مع أنه في خطبة عمله عرّض بالآخرين وغمز : « وهذا الكتاب هو المستحق أن يسمّى « أدب الكتّاب » على الإيجاب لا الاستعارة ، وعلى التحصيل لا على التمثيل . فإني رأيتُ من صنّف مثل هذا الكتاب ونسبه هذه النسبة ولم يحصل له منه إلا تسميته دون تجسيمه ، وتعميته دون إيضاحه وتقريبه من المعنى الذي ألبسه إياه ونسبه إليه »[٢٩]. فإذا كان يدور في خَلَد الصّولي من المتقدمين عليه ابن قتيبة مثلاً ، فهو في مغمزه ظلوم وعداوة « الكار » فيه بيّنة .

ونجد بين طائفة المؤلفات التي تدور حول موضوعنا « كتاب الكتّاب » لابن دَرَسْتَويه (ت ٣٤٧هـ) الذي هو بمنزلة مرجع « مهنيّ » موجز يستدل الكتّاب بواسطته على شروط كتابة الهمزة ، وعلى المد والقصر ، والفصل والوصل ، والحذف والزيادة ، وشروط البَدَل والنَّقْط والشكل ، وشروط القوافي . وهناك باب رسوم خطوط الكتب ، شأن قول المؤلف حول معرفة تقليب القلم : « إعلم أن من الحروف والمدّات والتعريقات ما يُكتب بوجه القلم ، ومنها ما يُكتب بحرفه ، ومنها ما يُكتب بعُرْضه ، ومنها ما يُكتب بِسِنّه ، وقد رسم الكتاب في كل ذلك رسماً يُعمل عليه »[٣٠]. وحرف القلم هو جانب سِنّه ، وعُرْضُه هو الجانب الأيسر من سِنّ القلم[٣١]. ولا يفوتنا التذكير ههنا في قائمة الكتب الموضوعة لمهنة الكتابة بعمل أبي محمد عبدالله بن السِّيْد البَطَلْيَوْسي (ت ٥٢١هـ) المتقدم الذكر ، وهو « الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب » المشتمل على ثلاثة أقسام أو أجزاء .

على أن الجاحظ يقف من الكتّاب موقفاً يبدو عليه التحامل والاستخفاف بشأن هذه الفئة الاجتماعية الصاعدة ، وهو يرميهم بكل مَثْلَبَة في غير هوادة أو تؤدة . وكأنه كان عُرضة لأذى لحقه من بعضهم الطالح فجعل الجزء عنواناً أو مقياساً للكتّاب أجمعين ، أو كأن أحدهم طلب الى الجاحظ تأليف رسالة في القدح بالكتّاب فاستجمع ما في جعبته من الأمور الطاعنة بالكتّاب وأفرغها في هذه الرسالة التي ليست بمنجاة من الغرض ! إن الجاحظ استعان بـ « حُجَجه » للردّ ، كما يبدو من مطلع رسالة « كتاب ذمّ أخلاق الكتّاب » ، على شخص حقيقي أو متوهَّم امتدح الكتّاب ورفع من شأو فعالهم ، فطوّح بأبي عثمان « منطقُهُ » الى الموقف النقيض ! إن الجاحظ ينظر في رسالته نظرة دونيّة إلى أصحاب مهنة الكتابة ، إذ لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم . « فأحكامه أحكام الأرقّاء ، ومحله من الخدمة محل الأغبياء » ! وهذا غلوّ من الجاحظ بيّن فاقع . ويرمي أبو عثمان الكتّاب بألوان القبائح من الصَّلَف والتِيْه والادّعاء ، ويأخذ عليهم ابتعادهم عن القرآن والحديث والسُنّة ونفورهم من العلوم . ويضرب الجاحظ أمثالاً على شَرَه الكتّاب وما هم عليه من السَّفَه والسخافة والجهالة والنذالة والبلادة ، فهم « أخفر الخلق لأماناتهم ، وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم » . والكتّاب أهل صناعة أشبه بالكلاب المتعادية في تحاسدهم وتحاذقهم على بعض ، وهم متقاطعون غير متعاطفين بنظرائهم بَرَرة ، شأنهم شأن الضرائر[٣٢]. وتنهض سيرة ابن المقفع خير مسفّه لمغالاة الجاحظ الفاضحة المطلقة .

إننا نملك دليلاً أو بعضه على عدم إجادة ابن المقفع لأدوات الكتابة كلها ، إذ إنه لم يكن يجيد النظم المتقن ولا يستطيع من الشعر إلا ، على حد تعبير الجاحظ ، « ما لا يُذكر مثلُهُ »[٣٣]. على أن الذي نعرفه أن عُدّة هذا الفارسي المتعرب الفكرية كانت ذات شأن ، كما أن عُدّته المناقبية جديرة بالاهتمام والاحتفال . وإذا لم يكن للإنسان مؤدّب كنفسه ، فقد تعهّدها ابن المقفع برائق الخصال ورقيق الشمائل . والقصص موفورة وكلها تزكّي ابن المقفع وتعطي شهادة ساطعة على معدِنه الصافي . فهي تكشف أن هذا الرجل الظريف الساحر كان جميل الحال عميم الغلّة ، سخيّ اليد مضيافاً ، راقياً في مستوى حياته الاجتماعية ، ولا عجب ما دام أنه كان من أشراف أهل فارس . فهو يمتلك الغِلْمان ، وينوّع ضروب الطعام ، ويغسل يديه بالماء قبل مباشرة الأكل[٣٤]. جاء عند القِفْطيّ : « ابن المقفع كان فاضلاً كاملاً »[٣٥] .

(٢٩) الصُّولي : أدب الكتّاب ، ص٢٠ .
(٣٠) ابن دَرَسْتَويه : كتاب الكتّاب ، ص١١٩ .
(٣١) ابن درستويه : ص١٥٤ .
(٣٢) رسائل الجاحظ ، ج٢ ص١٩٠ - ١٩٥ ، ١٩٧ - ٢٠١ .
(٣٣) البيان والتبيين ، ج١ ص٢٠٨ .
(٣٤) البلاذري : أنساب الأشراف ، ق٣ ص٢١٨ - ٢٢٠ .
(٣٥) تاريخ الحكماء ، ص٢٢٠ .

« أيجعلك مؤدِّباً في آخر عمرك ؟ »

إذا كانت الدراهم تستعبد من الناس جُلَّهم فابن المقفع لها منفق دون حساب ، يجود بها على جارٍ ركبه الدَّيْن فرامَ بيع داره ، وذلك حفاظاً منه على حُرمة الجِوار . ويقع صديقه الودود الكاتب عِمارة بن حمزة في ورطة مالية ويشرف على بيع ضيعته ، وهو الذي كان المنصور والمهدي يحتملان ما فيه من تِيه وعُجْب لبلاغته وفضله[٣٦]، فيهرع ابن المقفع لانتشاله دون علم منه ، بل يضيف له الى ضيعته الآنفة ضيعة أخرى مجاورة نفيسة ويغدق عليه ما يحتاجه من مال[٣٧]. ومن الناس من يسعى إليه الدرهم فيضمه إلى مثيله ويكنز ما وسعه ، غير أن ابن المقفع ، على ما يتضح من أخباره ، كان يتناول باليد اليمنى ما ينشر بين ذوي العثرات باليد اليسرى . « وكان يكتب لداود بن عمر بن هُبيرة على كَرْمان ، فأفاد معه مالاً ، وكان يُجري على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة بين الخمسمائة الى الألفين في كل شهر »[٣٨].

وإذا كان ابن المقفع منفاقاً على صحبه وعارفيه والمتصلين به بحكم الجوار ، فكيف يكون حاله مع الذين جمعته بهم حرفة الأدب والكتابة والعلم ؟ خصوصاً وأنه « كانت لعبدالله بن المقفع حال جميلة وغلّة تأتيه من فارس كافية ، وكانت له مروج تقاد إليه منها البراذين والبغال ، فيهديها ويحمل عليها »[٣٩]. وهذه الرواية توضح أيضاً أن ابن المقفع كانت تشدّه آصرة متينة إلى فارس حيث وُلد في قرية « جُوْر » التي اشتهرت بالورد الذي يُنسب إليها . إليك هذه الرواية التي نراها مفتاحاً لخبايا نفس ابن المقفع ، النفس الكريمة التي تبدو الشهامة أدنى مراتبها : « قال سعيد بن سَلْم : قصدتُ الكوفة فرأيت ابن المقفع ، فرحّب بي وقال : ما تصنع ههنا ؟ فقلت : ركبني دَيْن فأحوجت الى الإزعاج . فقال : هل رأيت أحداً ؟ فقلت : ابن شُبْرُمَةَ وعرّفته حالي ، فقال : أنا أكلم الأمين ليضمك إلى أولاده فيكون لك نفع . فقال : أفٍّ لذلك ! أيجعلك مؤدِّباً في آخر عمرك[٤٠] ؟ أين منزلك ؟ فعرّفته . فأتاني في اليوم التالي ، وأنا مشغول بقوم يقرأون عليّ ، ومعه منديل ، فوضعه بين يدي ، فإذا فيه أسورة مكسورة ودراهم متفرقة مقدار أربعة آلاف درهم ، وحينئذ زمان المنصور وفي الدراهم ضيق . فأخذتُ ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعنت به »[٤١]. لقد تيسّر العمل لسعيد بن سَلم ، لكن ابن المقفع الذي اشتغل بدوره مؤدّباً لبعض أبناء إسماعيل ابن علي[٤٢]، عم السفّاح والمنصور ، أبت عليه نفسه أن ينصرف رجل طاعن في السن إلى مزاولة التعليم ، إذ إنه يدرك كم سيجهد روحه في هذه المهنة الشّاقة .

الحكمة ضالّة المصلح

وإذا كان من أديب تشهد له مؤلفاته ومصنّفاته بنصرة الخُلُق الفاضل والتصرف الحكيم ، فابن المقفع ابن بُجْدتها ــ على رأي القول السائر . فهناك هذا السِّفْر النفيس الذي هو « كليلة ودمنة » معوان على الاستقامة ، والأخذ بالحكمة ، والانتفاع بتجارب الآخرين ، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل . « وينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وُضعت له ، وإلى أية غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم ، وأضافه الى غير مُفْصِح ، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالاً » . ولا يفوت ابن المقفع أن يزيد من تنبيه قارئه ، لئلا تشغله محاورات

(٣٦) ابن النديم : ص١١٨ .

(٣٧) الجهشياري : ص١٠٩ و ١١٠ .

(٣٨) الجهشياري : ص١٠٩ ــ جاء في هذه العبارة ، كما أوردها المحققون لكتاب «الوزراء والكتّاب » أن ابن المقفع « كان يكتب لدواوين عمر بن هبيرة » . وهذا وهم ، إذ الصحيح بدل « لدواوين » هو « لداود بن » !

(٣٩) البلاذري : أنساب الأشراف ، ق٣ ص٢١٩ .

(٤٠) كانت رابطة الصداقة تجمع بين ابن شُبْرُمة وابن المقفع الذي كان بارّاً بصديقه عند الشدائد ، ولا عجب وسخاء صاحب « دفتر كليلة ودمنة » ــ كما جاء هذا التعبير في « رسائل الجاحظ » (ج٢ ص١٩٢) ــ شائع شهير . ويُروى عن ابن المقفع أنه مر برحل يُقاد ، فقال لخصمائه : « إن عزمكم أن تقتلوا هذا الرجل متعمدين لقتله ، ولعله ألا يكون أراد قتل صاحبكم . فخذوا مني ديته وهبوه لله . فلم يزل يطلب إليهم ويزيدهم ، حتى أخذوا منه ثلاث ديات وأطلقوه » (البلاذري : أنساب الأشراف ، ق٣ ص٢١٩ و ٢٢٠) .

(٤١) الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، ج١ ص٥٢ و ٥٣ .

(٤٢) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج١ ص٢٥٢ ــ إن الراغب الأصبهاني يورد رواية الجاحظ على نحو مختلف ، إذ يذكر أن إسماعيل بن علي كلّف ابن المقفع « أن يجلس مع ابنه في كل أسبوع يوماً ، فقال : أتريد ان أُثبِّتَ في ديوان النَّوْكى ؟ » (محاضرات الأدباء ، ج١ ص٥٢) . والنَّوْكى هم الحمقى . ونعلم أن مهنة التعليم مقترنة ، في أذهان بعض الناس ، بالخفّة وضروب الحماقة . فالمؤدّب ، في نظرهم ، هو معلم صبيان ، ومن عاشر الصبيان غدا مع الزمن صِبْيَهم ! على أن هناك رواية أوردها البلاذري تؤكد أن ابن المقفع ، على ما روى الجاحظ ، اشتغل مؤدِّباً لبعض وَلَد إسماعيل بن علي . وقد سمعه يوماً يقول : « أعطوني بِرْذَوْني الأسود ، فقال له : لا تقل هذا وقل برذوني الأدهم . فلما أتي ببرذونه قال : هاتوا طيلساني الأدهم ، فقال له : إن عناءَ تقويم ما لا يستقيم » (أنساب الأشراف ، ق٣ ص٢٢٠) ! والبرذون تُجمع على بَرَاذين ، دابة الحمل المتثاقلة المشي ، وهو بين الخيل من غير نتاج العراب (ابن منظور : لسان العرب ، مادة « برذن » ، م١٣ ص٥١) .

الحيوانات المسلية عن تلمّس الغرض الخبيء وراءها : « وكذلك يجب على قارىء هذا الكتاب أن يُديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر معانيه ، ولا يظنّ أن نتيجته الإخبار عن حيلة بهيمتين ، أو محاورة سَبُع لثور ، فينصرفَ بذلك عن الغرض المقصود »(٤٣). فلُباب هذا الكتاب نُصح وإرشاد ، وحثّ على المكارم ، ودفع عن المكاره ، والكلام عنه لا تفي به الكلمات . ولئن عرّبه ابن المقفع وزاد فيه وحوّر ، بحيث جعله يتفق وقيم المجتمع الإسلامي ، فلقد انتقى ما نفع به الناس ، والحكمة ضالّة المصلح أكانت هندية في أصلها أم فارسية .

وأديبنا همّه أن يلتقط من أقوال الماضين أجودها ومن حكمهم أنفعها ، فهو يلملم لك الحروف المضيئة ويُعمل فيها عقله ويطرحها تحت مجهار ثقافته ، فتغدو زاهية بالمعاني الكريمة ، التي « فيها عون على عِمارة القلوب وصِقالها وتجلية أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق »(٤٤). إليك هذا القول النافع نتاج التفاوت الاجتماعي الفاضح ، بحيث إن الخِلال نفسها تتبدل معانيها بتبدل الطبقات التي تتحلى بها : « وليس خَلّةٌ هي للغني مدح إلا هي للفقير عيب : فإن كان شجاعاً سُمّي أهوجَ ، وإن كان جواداً سُمّي مفسداً ، وإن كان حليماً سُمّي ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سُمّي بليداً ، وإن كان لَسِناً سُمّي مِهذاراً ، وإن كان صموتاً سُمّي عياياً »(٤٥).

مسؤولية الكاتب

إن الكاتب كان مسؤولاً ، وتتمثل فيه شخصية « الديبلوماسي » . فهو يَقِظٌ ، فهّامة ، نصوح ، مطّلع ، داهية ، وقد يتحمل أخطاء سيده . والكاتب النموذجي يبدو في صورة الرجل الحاذق الذي تَمثّله مَكْيَافلّي في « الأمير »(٤٦). ولهذا قيل : « كل صناعة تحتاج إلى ذكاء ، إلا الكتابة فإنها تحتاج إلى ذكاءين : جمع المعاني بالقلب ، والحروف بالقلم »(٤٧). ولعل ما يُروى عن عبدالحميد الكاتب يوضح هذه الصورة لمسؤولية الكاتب ومكانته والأهمية التي تُعلّق على ما يخطّه . فعندما استفحل خطر أبي مسلم الخُراساني قال عبدالحميد للخليفة مروان بن محمد : « إني قد كتبت كتاباً إن أنجع فذاك ، وإلا فالهلاك . إني ضامن أنه متى قرأ الرسول على المستكفين حول أبي مسلم يشهد منهم أنهم يختلفون ، وإذا اختلفوا كَلَّ حَدُّهم وذَلّ جَدُّهم » . ويُحكى أن هذا الكتاب كان من الكِبَر بحيث حُمل على بعير ، كونه كُتب على رُقُوق جلدية ، والرقّ لا يتسع إلا للسطور القليلة(٤٨)، وعبدالحميد قد أطال وأطنب . المهم أن هذا الكتاب الذي بذل فيه عبدالحميد عصارة مواهبه لينال به مأرباً ، عندما ورد على أبي مسلم الداهية دعا بنار وطرحه فيها(٤٩)!

ويتبدى الوصف المتقدم الذكر لمهمة الكاتب « الديبلوماسية » في سيرة ابن المقفع نفسه عندما كان يتولى الكتابة لدى المسيح بن الحَوَاريّ بِنَيْسابور . فقد جاء سفيان بن معاوية لتسلم منصب المسيح ، فسَفَر ابن المقفع بينهما وخدع سفيانَ ومساطله ، بحيث سمح للمسيح أن يهيّىء الرجال ويهزم سفيان(٥٠). ويتجلى الدهاء السياسي لَدُنَ ابن المقفع على نحو مكشوف ــ حسبما ذكرت الرواية التي جاء بها إبراهيم بن محمد المدبّر في « الرسالة العذراء في موازين البلاغة وأدوات الكتابة »(٥١) ــ وذلك حينما كان كاتباً عند المنصور . وفحوى الرواية أن ابن المقفع لعب دوراً مع غيره من الكتّاب في توريط أبي مسلم الخراساني ، إذ استمالوه بحيث نزل عند رأيهم وقصد الخليفة المنصور الذي أجهز عليه وأحاله خبراً فاجعاً .

ذكرنا أن الكاتب قد تقع عليه تَبِعة أخطاء سيده ، وابن المقفع وقع ضحية لأعمام المنصور الذين انصرف لهم . فقد ثار عبدالله ابن علي، عم المنصور ، على ابن أخيه ورغب بالخلافة لنفسه ، وذلك إثر وفاة السفّاح . فأخفق عبدالله ، والتجأ عند أخويه سليمان وعيسى اللذين كانيعمل عندهما ابن المقفع في البصرة . وعندما طالب المنصور بتسليمه عبدالله خشي شقيقاه عليه ، ورغبا الى المنصور تسليمه لقاء أمان كلّفا ابن المقفع بصياغته . فجاء به محكَماً محرِجاً جارحاً ، بحيث أخرج المنصور عن طوره وملأ صدره حقداً على كاتبه ، مما جعله يحرّض سفيان بن

(٤٣) كليلة ودِمنة ، عرض الكتاب لعبدالله بن المقفع ، طبعة « المَرْصَفي » ، ط ٥ ، ص١٢٧ ، ١٤١ و١٤٢ .

(٤٤) كرد علي : رسائل البلغاء ، الأدب الصغير لابن المقفع ، ص٨ .

(٤٥) رسائل البلغاء ، ص٣٤ و ٣٥ .

(٤٦) M. Farid ben Ghazi: Un Humaniste du 2e siècle H./8e siècle J.C. - Abdallah ibn Al-Muqaffa', vol.1, p. p. 70 - 71.

(٤٧) الراغب الأصبهاني : ج١ ص٩٧ .

(٤٨) محمد كرد علي : « عبدالحميد الكاتب » ، « مجلة المجمع العلمي العربي » م٩ ، ج٩ (آب ١٩٢٩) ، ص٥٢٠ .

(٤٩) أبو حيّان التوحيدي : البصائر والذخائر ، م١ ص١٥١ .

(٥٠) الجهشياري : ص١٠٥ .

(٥١) كرد علي : رسائل البلغاء ، ص٢٤٩ .

معاوية ، والي البصرة الذي خلف عليها سليمان بن علي ، على قتل ابن المقفع . وكان سفيان يتلهف على فرصة سانحة كهذه ، إذ إنه كان يطوي صدره على حقد مستسرّ على ابن المقفع ، وقد علمنا ما كان من أمر ناقل كليلة ودِمنة عندما سَفَرَ بين سفيان والمسيح بن الحوارِيّ . لهذا ما أن أشار المنصور على سفيان بالتخلص من ابن المقفع حتى اسرع إلى الخوض في دمه ، على نحو بشع ، تشفياً وانتقاماً .

تطور النثر الديواني

يبدو أن ابن المقفع بلغ مرتبة جليلة في الكتابة ، فهو « زعيم كتّاب الفرس والعرب »[٥٢]. وهذه الكتابة أملتها ظروف تاريخية ، فإن تطور الدولة الإسلامية ، والصعاب الإدارية التي واجهتها ، وامتداد رقعة الحكم ، وتشابك المصالح ، حملت المسؤولين ، كما ألمحنا في مطلع هذا الفصل ، على إيلاء الكتابة دورها التنظيمي المحتوم . لذا كان طبيعياً أن يتدرج النثر للتعبير عن الأغراض السياسية المستجدة ، وكان لا بد للدواوين أن تشهد هذا التطور في الأسلوب الذي ندين به لعبدالحميد بن يحيى الكاتب . ونحن نقصد التطور في الأسلوب الذي لحق النثر المستعمل في ديوان الرسائل أو الإنشاء ، فهو الديوان الذي يعوّل على الكتابة الفنية التي تحتاج إلى إتقان وصنعة ومَلَكة أدبية وبراعة بلاغية ، في حين أن سبيل بقية الدواوين في الكتابة كان حساب المال ووضع التقارير الرسمية وما أشبه من أعمال إدارية . ثم إن فن الرسائل لم يقتصر على الدواوين أو المناسبات الاجتماعية ، بل تعداهما إلى تناول السياسة وتدبير المُلك ، دفاعاً عن السلطة العباسية وتفنيداً لآراء خصومها . وقفز فن الرسائل متطوراً مع ابن المقفع والجاحظ وغيرهما للتعاطي في شؤون الأدب والفكر والتربية .

كان النثر الترسّلي في عهد النبي والخلفاء الذين جاءوا من بعده بسيطاً ، مختصراً ، سريعاً ، لم يُقصد لذاته وإنما للتعبير عن غرض ، فليس فيه سعي إلى صياغة فنية واحتفال بمتعة جمالية[٥٣]. وظل الحال على هذا النحو إلى أن عرفنا الكتابة الفنية في أوائل القرن الثاني الهجري مع عبدالحميد بن يحيى وهو عبدالحميد الأكبر ، وبعدها مع صديقه ابن المقفع . وقد قال الجاحظ يمتدح الكتّاب : « لم أرَ مثل طريقة الكتّاب ، فإنهم اختاروا من الألفاظ ما لم يكن وحشياً ولا ساقطاً سوقياً . وقال : إنما عَذُبَ شعر النابغة لأنه كان كاتباً ، وكذلك زهير »[٥٤]. سامح الله أبا عثمان ، فلماذا إذاً وضع رسالة في ذم الكتّاب ؟ !

عبدالحميد الكاتب

وعبدالحميد من الموالي ، فهو مولى بني عامر بن لؤي . وقد وافى الشام حيث سكن الرَقّة ، وذلك من حَدِيْثَة النورة بالأنبار ، أي أنه عراقي الأصل[٥٥]. تلقى العلم في الكوفة الشهيرة بمكانتها الثقافية ، وقد نزلها حَدَثاً واشتغل فيها مؤدّب صِبْية . وارتبط اسمه بعدها بمروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، إذ صحبه مذ شَخَصَ والياً على أرمينية ، ثم لزمه خليفة حتى أيامه الأخيرة[٥٦]. مع العلم أن عبد الحميد ابتدأ في الكتابة للأمويين منذ عهد عبدالملك بن مروان ، واستمر في عمله هذا إلى انقضاء الدولة الأموية . وتلمذ عبدالحميد لختَنه ، زوج أخته ، أبي العلاء سالم بن عبدالرحمن (وقيل : بن عبدالله) ، مولى هشام ابن عبدالملك ورئيس ديوان الرسائل في خلافته . وكان سالم يجيد اليونانية ، وقد نقل عنها إلى العربية بعض رسائل أرسطو إلى الإسكندر ، وقيل نُقل له وأصلح هو[٥٧].

هناك إجماع من القدماء والمحدثين على قيمة عبدالحميد الكاتب ودوره في تطوير النثر العربي وتطويعه للتعبير عن المعاني المستجدة . قال ابن النديم : « وعنه أخذ المترسّلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفَوْا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسّل »[٥٨]. ويقول طه حسين : « وربما لم يوجد كاتب يعدِل عبدالحميد فصاحة لفظ ، وبلاغة معنى ، واستقامة أسلوب . فهو أحسن مَنْ كتب العربية ومرنها ، وأقدرها على أن تتناول المعاني المختلفة وتؤديها »[٥٩]. ولو أن المجال يسمح ههنا لوقفنا بعض

(٥٢) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، ص٤٠ .
(٥٣) المرجع السابق ، ص٣٣ .

(٥٤) الراغب الأصبهاني : ج١ ص٩٧ .
(٥٥) يذكر ابن خلكان انه من أهل الشام (وفيات الأعيان ، م٣ ص٢٢٨) .
(٥٦) « فلما جاء مروانَ الخبرُ بالخلافة سجد وسجد أصحابه إلا عبدالحميد ، فقال له مروان : لِمَ لا سجدت ؟ فقال : ولِمَ أسجد ؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا ! يعني بالخلافة . فقال : إذاً تطير معي . قال : الآن طاب السجود ، وسجد » (ابن نُباتة : سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، ص٢٣٧ و ٢٣٨) .
(٥٧) ابن النديم : ص١١٧ ــ البلاذري : أنساب الأشراف ، ق٣ ص١٦٣ ــ ابن عبد ربه : ج٤ ص١٦٤ و ١٦٥ ــ ابن خلكان : م٣ ص٢٢٨ ، ٢٣٠ ــ الصفدي : ق١٥ ص٨٦ ــ كرد علي : « عبدالحميد الكاتب » ، « مجلة المجمع العلمي العربي » (آب ١٩٢٩) ، ص٥١٦ .
(٥٨) الفهرست ، ص١١٧ ــ ابن خلكان : م٣ ص٢٢٨ .
(٥٩) من حديث الشعر والنثر ، ص٧٤ .

الشيء عند هذا الكاتب البليغ ، الجيّاش في رسائله ، المتبحر في بواطن العربية ، ولنظرنا في بعض نصوصه المختارة . وهي نصوص غزيرة ، ما دام أن مجموع رسائل عبدالحميد بلغ نحو الألف ورقة[٦٠]. ويمكن الاطلاع على نماذج من هذه النصوص في « صُبْح الأعشى » للقلقشندي .

ومن آثار عبدالحميد الذائعة ، التي بقيت لنا ، رسالته الى الكتّاب ، وكان قد أصدرها على شكل منشور لرجال الديوان[٦١]. على أننا نرى ، شخصياً ، أن التعرف الحقيقي على أسلوب عبدالحميد لا يمر عبر رسالته إلى الكتّاب ، لأن هذه تتسم بالطابع الجاف الرسمي ، في حين أن عبدالحميد ، خلال رسائله الكثيرة ، ينجرد في تعبير متطاول ، متدافع ، وكأنه يمتطي صهوات الخيل المتراكضة[٦٢]. ويتساءل المرء بعدها : أحقاً هو فارسي الأصل ، كما في أغلب الروايات ؟ لأن أسلوبه لا ينبيء أبداً إلا أنه عربي النِّجار ، عربي الأداة ، عربي الأسلوب ، وقد أشبع صاحبه وارتوى من منهل القرآن . إنه التأقلم المبدع والذوبان في ظلال حضارة إسلامية منفتحة . في حين أن صديقه ابن المقفع ظل بمثابة القنطرة بين العربية والفارسية معنىً ومبنىً وحضارةً .

مال عبدالحميد في أسلوبه الى الإطناب والتبسّط في تقليب الأفكار، تَبَعاً لانفتاح الدولة واستيعابها الجديد من الحضارة. « ومن مواجب الحضارة الإسهاب ، ومن دواعي البداوة الاقتضاب » ــ على حد تعبير محمد كرد علي الذي يذهب أن هذه الإطالة في عرض الأفكار لم تكن وطيدة لدى الأمويين لأنهم عرب أقحاح تربوا على الإيجاز ، وعلى هذا المنوال كان كتّابهم . ويردّ كردعلي هذه الإطالة عند عبدالحميد إلى تأثر هذاالرائد بالفارسية ، لغة قومه[٦٣]. والصحيح في رأينا أيضاً أن الإيجاز مرتبط بالخطابة ، وكانت شفوية تتجه إلى جمهور ، في حين أن الكتابة الديوانية المسجلة على القِرطاس تتطلب تركيزاً ، زِدْ أنها شرعت تعبّر عن مضامين متقدمة اجتماعياً وتنظيمياً . ولا أدلّ على ذلك من أن النثر الفني غدا مع العباسيين جدليّاً ، ونفض عن كاهله الكثير من معالم البداهة البدوية المرتجلة الفطرية .

ونجد كذلك في أسلوب عبدالحميد وفرة استعمال العطف والترادف ، ونلحظ أيضاً انتقاء ذكياً للألفاظ الأصيلة المعبّرة الرشيقة . كما أن عبدالحميد يلجأ إلى السَّجْع أحياناً ، غير أنه بمنأى عن التكلف والاصطناع . وقد تميز أسلوب عبدالحميد بالتوازن ، ويدعونه أيضاً الازدواج أو السجْع العاطل ، لأنه يقوم على تعادل الفقرات ، كما هو في السجْع ، ولكن من غير تقيّد بالقافية[٦٤].

كان لمهنة الكتابة أثرها في تجويد عبدالحميد أسلوبه . وذلك أن الخليفة كان في السابق يُملي رسائله ، أما هشام بن عبدالملك فكان أول من أوكل إلى مولاه أبي العلاء سالم تحبير رسائله . ثم اصطنع مروان بن محمد عبدالحميد للغرض نفسه ، فاشتهر بالكاتب[٦٥]. وغدا عبدالحميد ــ كما جاء عند ابن كثير ــ وزيراً لمروان[٦٦]. لا ريب أن ابن كثير الذي عاش في القرن الثامن الهجري ، قد أخطأ في إطلاق صفة « الوزير » على عبدالحميد ، لأن هذا اللقب أول من عُرف به وحمله في الإسلام السياسي هو أبو سَلَمة الخلاّل ، وُزير السفّاح فاتحة الخلفاء العباسيين[٦٧]. ولا أحجى من أن ابن كثير نفسه يورد ، في الصفحة التالية من موسوعته التاريخية ، أن أبا سَلَمة كان أول من سُمّي بالوزير[٦٨]! وهي معلومة شائعة في مصادرنا الموثوقة . ولعل ابن كثير أراد القول عن عبدالحميد إنه كاتب مروان بن محمد ، باعتبار أن الكاتب الذي كان في مرتبة عبدالحميد ومكانته من مروان صار يُدعى الوزير مع حلول العهد العباسي[٦٩]. وهذا الاختلاط بين الكاتب والوزير شائع التداول ، على خَطَله ، عند مصنّفي

(٦٠) ابن النديم : ص١١٧ ـ ابن خلكان : م٣ ص٢٢٨ ــ ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ج١٠ ص٥٥ .

(٦١) راجع نص رسالة عبدالحميد الى الكتّاب لدى الجهشياري : ص٧٣ ـ ٧٩ .

(٦٢) « قيل لعبدالحميد : ما الذي مكّنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلع ــ يعني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه » (ابن نباتة : سرح العيون ، ص٢٣٩) .

(٦٣) « مجلة المجمع العلمي العربي » م٩ ، ج١٠ (أيلول ١٩٢٩) ، ص٦٠٠ .

(٦٤) أنيس المقدسي : تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، ص١٤٣ ، ١٥٢ ـ ١٥٤ ، ١٦٥ ـ ١٦٧ .

(٦٥) أحمد محمد الحوفي : أدب السياسة في العصر الأموي ، ص٥٢٤ .

(٦٦) البداية والنهاية ، ج١٠ ص٥٥ .

(٦٧) أبو هلال العسكري : الأوائل ، ق٢ ص٩٨ ــ أبو منصور الثعالبي : تُحفة الوزراء ، ص١١٥ .

(٦٨) البداية والنهاية ، ج١٠ ص٥٦.

(٦٩) يقول مروان بن محمد لعبدالحميد ، وقد تردد هذا الأخير في إبداء الرأي حول موضوع يشغل بال الخليفة : « قد رأيتُ سكوتك عمّا نطق فيه مَنْ رأيت ، فما عندك ؟ فليس هذا من الأمر الذي سكت عنه مثلك في قدر حالك عندي وثقتي بك . . . متى كنت تخفي عني شيئاً من رأيك ونصيحتك ، وإن وقع بخلاف ما أهوى ؟ . . . قد تعلم أنه لا يتقدمك عندي أحد في الثقة ، فتكلم على حسب ذلك » (مؤلف من القرن الثالث الهجري : أخبار الدولة العباسية ، ص٣٩٧) .

العصور العباسية ، ما دام الثعالبي نفسه (المتوفّى سنة ٤٢٩هـ) يقع في الهفوة عينها ، إذ يورد أن عبدالحميد كان في جملة وزراء بني أمية وكتّابهم الكفاة[٧٠].

لقد عمد عبدالحميد الى التأنق في مطلع رسائله وختامها ، وتوسّل في بَدْء الرسائل بعبارات التحميد الطويلة المتنوعة ، بحسب ما يقتضيه الحال[٧١]. « وهو أول من اتخذ التحميدات في فصول الكتب »[٧٢]. فعبدالحميد أول من أطال الرسائل ، وجرى الناس بعده على أثره[٧٣]. وكما يقول أحد الباحثين في نثر عبدالحميد: « ليس من المبالغة أن نصف نثر عبدالحميد بأنه من آداب الملوك ، لأنه في أكثر إبداعه كان ينشىء لهم وباسمهم ، وسلوكه معهم قد فرض عليه من التوازن في السلوك ، ومن الأناقة في الزيّ ، ومن الانتظام في الحركة ، ما يجعل نثره يمتاز بهذه السمات »[٧٤].

ابن المقفّع « المستشرق »!

لن نعرض في هذا الفصل لأسلوب ابن المقفع إلا على نحو عابر ، وذلك لأن الآراء تضاربت فيه ، بحيث يستأهل بحثاً مستفيضاً مستقلاً . فالقدامى أشادوا ببلاغة ابن المقفع : « قال أبو العَيْناء : كلام ابن المقفع صريح ، ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح ، كأن كلامه لؤلؤ منثور ، أو وَشْي منشور ، أو روض ممطور »[٧٥]. في حين أن أحد المحدثين الكبار يذهب إلى آراء في أسلوب ابن المقفع يحسن إنعام النظر فيها. فعند رأي طه حسين أن ابن المقفع « يكلّف النحو العربي تكاليف ، ربما لم يكن النحو العربي مستعداً لأن يحتملها » . والسبب في ذلك أن ابن المقفع ، على شهرته ، « لم يكن عظيم الحظ من الفصاحة والنحو العربي » . لذا فنحن واجدون في كتابته ، عند رأي صاحب « الأيام »، ضروباً من التكلف والاعوجاج ، وإفساداً في تركيب الجمل بإفساد الضمائر ، وإكثاراً في التقديم والتأخير والإيجاز والحذف والإطناب الممل الثقيل . فابن المقفع « لم يكن أكثر من مستشرق يُحسن اللغة العربية والفارسية ، ويبذل جهداً عظيماً فيوفّق كثيراً ويخطىء أحياناً »[٧٦].

الصداقة الفُضْلى

ولعل خير ما نختتم به كلامنا حول الكتابة الديوانية وأصحابها الكتّاب هو أن نعرض لموقف ابن المقفع النبيل الشجاع حيال صديقه عبدالحميد الكاتب ، عندما حلّت بهذا الأخير المحنة عقب سقوط الدولة الأموية وتدحرجِ رأس مروان بن محمد . فإذا كان ابن المقفع قد أطلق قوله الشهير « أبذُلْ لصديقك دمك ومالك »[٧٧]، فحياته كانت خير مصداق لهذه العبارة. فقد عرفنا ما كان من أمر جوده بالمال ، وهو بمنزلة أضعف الإيمان بالنسبة الى الجود بالدم ، لكن ناقل كليلة ودمنة لم يكن ليتراجع عن هذا البذل المصيري إذا دعا الداعي ، إذ تُروى عنه بهذا الصدد حكاية شائقة . كانت الشرطة العباسية جادّة في البحث عن عبدالحميد الكاتب ، وهو النابه الشأن ، والبالغ منتهى الوفاء لآخر خلفاء بني أمية ، مروان بن محمد ، إذ ظل ملازماً له والخليفة يحثه على الرحيل وطلب الأمان من العباسيين وأن يُظهر الغدر به ، وعبدالحميد يجيبه : « ولكني أصبر حتى يفتح الله عليك أو أُقتلَ معك »[٧٨]! ثم دارت الأيام على مروان شرّ دورة ، وعلمت الشرطة بوجود عبدالحميد لدى ابن المقفع[٧٩]، الذي كان ربما فارّاً بدوره الى البحرين ، وقيل : الجزيرة[٨٠]. فداهم أفراد الشرطة الاثنين على حين غِرّة ، وهما في البيت ، وقالوا : « أيّكما عبدالحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ! خوفاً من أن يُنال صاحبه بمكروه . وخاف عبدالحميد أن يُسرعوا إلى ابن المقفع ، فقال : ترفّقوا ، فإن فيّ علامات ، ووكّلوا بنا بعضكم ، ويمضي بعض يذكر تلك العلامات لمن وجّه بكم .

(٧٠) تحفة الوزراء ، ص١١٤ .
(٧١) الحوفي : أدب السياسة في العصر الأموي ، ص٤١٥ ، ٥٣٠ و ٥٣١ .
(٧٢) ابن خلكان : م٣ ص٢٢٨ ــ ابن نباتة : ص٢٣٨ .
(٧٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج٤ ص٩٠ ــ ابن خلكان : م٣ ص٢٢٨ .
(٧٤) عبدالحميد يونس : « الكاتب الأول عبدالحميد الكاتب » ، مجلة « الهلال » س٨١ ، ع ٩ (سبتمبر ١٩٧٣) ، ص٦٨ .
(٧٥) التوحيدي : البصائر والذخائر ، م٢ ، ج٢ ، ص٣٦١ .
(٧٦) من حديث الشعر والنثر ، ص٤٥ و ٤٦ ، ٥٦ .
(٧٧) رسائل البلغاء ، الأدب الكبير ، ص٧١ .
(٧٨) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، م١ ص٢٦ و ٢٧ ــ البلاذري : أنساب الأشراف ، ق٣ ص١٦٤ ــ الجهشياري : ص٧٩ ــ المسعودي : ج٤ ص٩٠ ــ ابن خلكان : م٣ ص٢٢٩ ــ ابن نباتة : ص٢٣٨ و ٢٣٩ . جاءت الرواية بأشكال مختلفة في هذه المصادر ، وقد أثبتنا عبارة البلاذري وابن نباتة .
(٧٩) هذا الأمر هو موضع تساؤل لدينا ، لأن هناك رواية تقول إن عبدالحميد قُبض عليه ، بعد مقتل مروان بن محمد في مصر حيث كان مصاحباً له في فراره ، ثم حُمل إلى السفّاح (الجهشياري : ص٧٩) . ومع ذلك فإن الجهشياري نفسه الذي أتى على هذه الرواية يذكر في الصفحة التالية حادثة القبض على عبدالحميد لدى ابن المقفع ، دون التفات الى المفارقة بين الروايتين ! وهذا الأمر يتكرر لدى ابن خلكان (م٣ ص٢٢٩ ، ٢٣١) .
(٨٠) ابن خلكان : م٣ ص٢٣٠ ــ ابن نباتة : ص٢٣٩ .

ففعل ذلك ، وأخذ عبدالحميد »[٨١]. وجاء أن أبا العباس السفّاح دفعه الى صاحب شرطته « فكان يحمّي طَسْتاً ويضعه على رأسه حتى مات »[٨٢]!

(٨١) الجهشياري : ص٨٠ ــ ووردت الرواية على نحو مماثل تقريباً لدى ابن خلكان : م٣ ص٢٣١ ــ كما وردت بشكل جزئي عند ابن نباتة : ص٢٣٩ .
(٨٢) البلاذري : أنساب الأشراف ، ق٣ ص١٦٤ ــ ووردت الرواية بشكل مطابق تقريباً لدى ابن خلكان : م٣ ص٢٣٠ ــ وجاءت على نحو قريب الشبه عند ابن نباتة : ص٢٣٩ .

أترى كيف لم تأخذ ابن المقفع رهبة عندما فاجأه الشُّرَط مع صديقه عبدالحميد ، بل غامر في وقت عصيب ، كفيل بأن يأخذ البريء بجريرة المذنب ، خصوصاً والصديقان يعاصران الانقلاب العباسي الدامي وما تلاه من تنكيل « ساديّ » بالأمويين ومَنْ والاهم ؟ أما كيف سلم ابن المقفع ، وكان كاتباً عند آل هُبيرة ، وهم الذين فتك بهم السفّاح إثر ملاينة ومراوغة ، فما زالت علامة استفهام تبحث عن جواب جليّ !

المصادر والمراجع

١ ـ ابن المقفّع (ت ١٤٢هـ) : كليلة ودِمنة ، تحقيق : محمد المَرْصَفي ، ط ٥ ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (؟) .
٢ ـ الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) : البيان والتبيين (٤ أجزاء) ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ٤٨ ـ ١٩٥٠ .
٣ ـ الجاحظ : رسائل الجاحظ (جزءان) ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ٦٤ ـ ١٩٦٥ .
٤ ـ ابن قُتَيْبة (الدِّيْنوري) (ت ٢٧٦ هـ) : أدب الكاتب ، تحقيق : محمد الدّالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٢ .
٥ ـ ابن قُتيبة (الدِّينوري) : عيون الأخبار (٤ مجلدات) ، تحقيق : أحمد زكي العدوي ، سلسلة « تراثنا » ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٣ .
٦ ـ البلاذُري (ت ٢٧٩هـ) : فتوح البلدان ، تحقيق : صلاح الدين المنجّد ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ .
٧ ـ البلاذري : أنساب الأشراف ، ق ٣ : العبّاس بن عبدالمطّلب وولَده ، تحقيق : عبدالعزيز الدوري ، سلسلة « النشرات الإسلامية » (٢٨) ، تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية ، بيروت ١٩٧٨ .
٨ ـ مؤلف من القرن الثالث الهجري : أخبار الدولة العباسية ، تحقيق : عبدالعزيز الدوري وعبدالجبّار المطّلبي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧١ .
٩ ـ ابن عبد ربّه (ت ٣٢٨هـ) : العِقْد الفريد (٧ أجزاء) ، تحقيق : أحمد أمين ، أحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري ، ط ٢ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
١٠ ـ الجَهْشياري (ت ٣٣١هـ) : الوزراء والكُتّاب ، تحقيق : مصطفى السقّا ، إبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ١٩٣٨ .
١١ ـ الصُّولي (أبو بكر) (ت ٣٣٥هـ) : أدب الكتّاب ، تحقيق : محمد بهجة الأثري ، المطبعة السلفيّة بمصر ١٣٤١هـ .
١٢ ـ المسعودي (ت ٣٤٥هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر (٧ أجزاء) ، طبعة بربيه دي مينار وباڤيه دي كرتاي ، عُني بتنقيحها وتصحيحها ووضع جزءين من الفهارس العامة : شارل پلاّ ، منشورات الجامعة اللبنانية ، قسم الدراسات التاريخية (١١) ، بيروت ٦٦ ـ ١٩٧٩ .
١٣ ـ ابن دَرَسْتَويه (ت ٣٤٧هـ) : كتاب الكتّاب ، تحقيق : إبراهيم السّامرائي وعبدالحسين الفتلي ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ١٩٧٧ .
١٤ ـ أبو هلال العسكري (ت حوالى ٤٠٠هـ) : الأوائل (قسمان) ، تحقيق : محمد المصري ووليد قصّاب ، سلسلة « إحياء التراث العربي » (٤١ و ٤٢) ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٧٥ .
١٥ ـ أبو حيّان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) : البصائر والذخائر (مجلدان) ، تحقيق : إبراهيم الكيلاني ، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء ، دمشق ١٩٦٤ ، ١٩٦٦ .
١٦ ـ الثعالبي (أبو منصور) (ت ٤٢٩هـ) : تُحفة الوزراء (المنسوب إلى الثعالبي) ، تحقيق : حبيب علي الراوي وابتسام مرهون الصفّار ، سلسلة « إحياء التراث الإسلامي » (٢٤) ، وزارة الأوقاف ، بغداد ١٩٧٧ .
١٧ ـ ابن النّديم (البغدادي) (ت ٤٣٨هـ) : الفِهْرِست ، تحقيق : غوستاف فلوغل ، ليبزيك ١٨٧١ . وقامت بتصويره مكتبة خيّاط ، بيروت ١٩٦٤ .
١٨ ـ ابن مكّي (الصَّقَلي) (ت ٥٠١هـ) : تثقيف اللسان وتلقيح الجَنان ، تحقيق : عبدالعزيز مطر ، لجنة إحياء التراث الإسلامي (١٠) ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٦ .
١٩ ـ الرّاغب الأصبهاني (ت ٥٠٢هـ) : محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (٤ أجزاء) ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١ .
٢٠ ـ البَطَلْيَوْسي (أبو محمد) (ت ٥٢١هـ) : الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب (٣ أقسام) ، تحقيق : مصطفى السقّا وحامد عبدالمجيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٨١ ـ ١٩٨٣ .
٢١ ـ القِفْطي (جمال الدين) (ت ٦٤٦هـ) : تأريخ الحكماء ، تحقيق : جوليوس ليّرت ، ليبزيغ ١٩٠٣ . طبعة مصوّرة قامت بها مكتبة المثنّى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر (؟) .
٢٢ ـ ابن خَلِّكان (ت ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٨ مجلدات) ، تحقيق : إحسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت ٦٨ ـ ١٩٧٢

٢٣ ــ ابن الطِّقْطَقَى (ت ٧٠٩هـ) : الفخري في الآداب السُّلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦ .

٢٤ ــ ابن منظور (ت ٧١١هـ) : لسان العرب (١٥ مجلداً) ، دار صادر ، بيروت (؟) .

٢٥ ــ الصَّفَدي (ت ٧٦٤هـ) : الوافي بالوفيات ، سلسلة « النشرات الإسلامية » (٦) ، تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية ، بيروت ٤٩ ـ ١٩٨٣ .

٢٦ ــ ابن نُباتة (المصري) (ت ٧٦٨هـ) : سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٦٤ .

٢٧ ــ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية في التاريخ (١٤ جزءاً) ، المطبعة السلفية ، مطبعة السعادة ، ومكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٣٢ .

٢٨ ــ ابن خَلْدون (ت ٨٠٨هـ) : المقدِّمة ، المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد ، مصر (؟) .

٢٩ ــ ابن حِجّة الحَمَوي (ت ٨٣٧هـ) : ثمرات الأوراق، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧١ .

٣٠ ــ السُّيُوطي (ت ٩١١هـ) : حُسْن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (جزءان) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ٦٧ ـ ١٩٦٨ .

٣١ ــ عبدالقادر البغدادي (المصري) (ت ١٠٩٣هـ) : خزانة الأدب ولُب لُباب لسان العرب (٤ أجزاء) ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٢٩٩هـ. طبعة مصوّرة قامت بها دار صادر ، بيروت (؟) .

٣٢ ــ F. Gabrieli : Encyclopédie de l'Islam (Nouvelle Edition) article «Ibn Al-Mukaffa » , t.3 , p.p. 907-909.

٣٣ ــ طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، مطبعة الصّاوي ، القاهرة ١٩٣٦ .

٣٤ ــ أحمد محمد الحوفي : أدب السياسة في العصر الأموي ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ .

٣٥ ــ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي (٥ أجزاء) ، وهي الطبعة التي وقف عليها حسين مؤنس ، دار الهلال ، مصر ١٩٥٨ .

٣٦ ــ M'hamed Férid ben Ghazi : Un Humaniste du 2e siècle H./8e siècle J.C. - Abdallah ibn Al-Muqaffa' (thèse en 2 volumes), Faculté des Lettres, Université de Paris 1957.

٣٧ ــ محمد كرد علي : « عبدالحميد الكاتب » ، « مجلة المجمع العلمي العربي » (دمشق) م٩ ، ج٩ (آب ١٩٢٩) ، ص٥١٣ ـ ٥٣١ ــ ج١٠ (أيلول ١٩٢٩) ، ص٥٧٧ ـ ٦٠٠ .

٣٨ ــ محمد كرد علي : رسائل البلغاء ، ط٤ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٤ .

٣٩ ــ آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، أو عصر النهضة في الإسلام (جزءان) ، ترجمة : محمد عبدالهادي أبو ريدة ، ط ٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٧ .

٤٠ ــ أنيس المقدسي : تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٠ .

٤١ ــ عبدالحميد يونس : « الكاتب الأول عبدالحميد الكاتب » ، مجلة « الهلال » (عدد خاص : أصحاب الأساليب) ، س٨١ ، ع ٩ (سبتمبر ١٩٧٣) ، ص٦٤ ـ ٧١ .